اللُّمَعُ عَلَـــــى القَواعِدِ الأربع

للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب

أبو سامي العبدان
حسن التمام

اللـُّـمَعُ عَلى القَواعِد الأربَع

للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي رحمه الله تعالى

أبو سامي العبدان

حسن التمام

المقدمة

قَالَ المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

بِسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحِيمِ

أسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أذَنبَ اسْتَغْفَرَ، فَإِنَّ هَؤُلاءِ الثَّلاثَ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ.

اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ: أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ (١) مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢)، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ، فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلا مَعَ التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلاةَ لا تُسَمَّى صَلاةً إِلا مَعَ الطَّهَارَةِ (٣)، فَإِذَا

---

١ – الحنيفية: أي: الملة السمحة، والحنيف: هو المائل عن الشرك إلى التوحيد.

ولا يكون مائلا عن الشرك إلا بالخلوص والبراءة منه، ومن أهله، ولا يكون موحّدًا إلا بالولاء لله بتوحيده وجميع طاعاته، بهذا يكون المسلمُ متبعًا للحنيفية السمحة التي هي ملة إبراهيم ﷺ، والّتي أُمر نبينا ﷺ أن يتبعها، قال الله تعالى: **{ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** [النحل:١٢٣]، وقال تعالى: **{قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** [الأنعام: ١٦١].

٢ – يشير إلى قوله تعالى: **{فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ . أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ}** [الزمر: ٢، ٣].

٣ – التوحيد شرط أساسي لقبول العبادة، وقد دلّ الكتاب والسنة أن العبادة لا تكون صالحة مقبولة عند الله تعالى إلا إذا توفّر فيها شرطان: =

دَخَلَ الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ، كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ (٤)، فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا، وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ، عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ (٥)، وَهِيَ الشِّرْكُ بِاللهِ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ

= الأول: أن يكون صاحبها قد قصد بها وجه الله تعالى وحده لا شريك له.

والثاني: أن تكون موافقةً لما شرعه الله تعالى في كتابه الكريم، أو بيّنه رسوله ﷺ في سنته، فإذا اختل واحد من هذين الشرطين لم تكن العبادةُ صالحةً ولا مقبولةً عند الله تعالى، ويدل على هذا قوله تعالى: **{فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}** [الكهف: ١١٠]، قال الحافظ ابن كثير في "التفسير" ٥/ ١٨٣:

"**{فمن كان يرجوا لقاء ربه}** أي: ثوابه وجزاءه الصالح **{فليعمل عملا صالحا}** أي: ما كان موافقا لشرع الله **{ولا يشرك بعبادة ربه أحدا}** وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصا لله، صوابا على شريعة رسول الله ﷺ".

٤ – فمهما بذل العبد من الأعمال من صدقات أو بر أو إحسان إلى الخلق فلا يكون مقبولا عند الله تعالى إلا بالتوحيد، قال تعالى: **{وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}** [الفرقان: ٢٣]، فالشرك الأكبر يكون سببًا لحبوط جميع الأعمال، قال تعالى: **{لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** [الزمر: ٦٥]، وهذا مطابق لقوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ}** [النساء: من الآية ٤٨]، فإن الإشراك إذا لم يغفر وأنه موجب للخلود في النار لزم من ذلك حبوط حسنات صاحبه والعياذ بالله.

٥ – الشبكة: هي التي تُلقى في البحر لصيد السمك، فالذي يدخلها لا ينجو منها إلا في النادر، فلهذا شبّه الشرك بالشبكة، فالحرص على التخلص من الشرك واجتنابه بكل أنواعه لا يكون إلا بتعلّم التوحيد، وهو مطلب عظيم من مطالب الدين، ومقصد جليل، =

يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦]، وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ.

❋ ❋ ❋

= وأصل كبير من أصول الإسلام، وإن آفة الشرك إنما جاءت بسبب الإخلال في هذا الجانب.

القاعدة الأولى

أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ، الرَّازِقُ، الْمُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الإِسْلامِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

إن أكثر الأمم السابقة، والذين قاتلهم رسول الله ﷺ، وأكثر الناس في الإسلام وقعوا في الشرك أو الكفر في توحيد الألوهية، لأنهم لا ينكرون ربوبية الله تعالى، بل هم يقرّون بأن الله تعالى هو الرب والخالق والرازق والمحيي والمميت، ولكنهم صرفوا شيئًا من العبادة لغيره تعالى، فجعلهم الله تعالى في عداد الكافرين بإشراكهم غيره في العبادة، فلم ينفعهم إقرارهم بتوحيد الربوبية، والأدلة على ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: **{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ}** [يونس: ٣١]، وقال تعالى: **{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ . اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ**

مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [العنكبوت: ٦١ - ٦٣]، وقال سبحانه: **{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }** [لقمان: ٢٥]، وقال تعالى: **{قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ}** [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩]، وقال تعالى: **{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ}** [الزمر: ٣٨]، وقال سبحانه: **{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}** [الزخرف: ٩، ١٠]، وقال تعالى: **{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}** [الزخرف: ٨٧].

قال الشيخ السعدي:

"هذا استدلال على المشركين المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة، وإلزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية، فأنت لو سألتهم من خلق السماوات والأرض،

ومن نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، ومن بيده تدبير جميع الأشياءِ؟ **{لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}** وحده، ولاعْتَرَفُوا بعجز الأوثان ومن عبدوه مع الله على شيء من ذلك.

فاعجب لإفكهم وكذبهم، وعدولهم إلى من أقروا بعجزه، وأنه لا يستحق أن يدبر شيئا، وسَجِّلْ عليهم بعدم العقل، وأنهم السفهاء، ضعفاء الأحلام، فهل تجد أضعف عقلا وأقل بصيرة، ممن أتى إلى حجر، أو قبر ونحوه، وهو يدري أنه لا ينفع ولا يضر، ولا يخلق ولا يرزق، ثم صرف له خالص الإخلاص، وصافي العبودية، وأشركه مع الرب، الخالق الرازق، النافع الضار.

وقل: الحمد لله الذي بين الهدى من الضلال، وأوضح بطلان ما عليه المشركون، ليحذره الموفقون.

وقل: الحمد لله، الذي خلق العالم العلوي والسفلي، وقام بتدبيرهم ورزقهم، وبسط الرزق على من يشاء، وضيقه على من يشاء، حكمة منه، ولعلمه بما يصلح عباده وما ينبغي لهم".

إن أهم ما أُرسل به المرسلون هو إفراد الله تعالى بالعبادة، فلا يصرف شيء من العبادة لغيره تعالى: من دعاء وخوف ورجاء وتوكل ورغبة ورهبة وخشوع وخشية وإنابة واستعانة واستعاذة واستغاثة وذبح ونذر وغير ذلك من العبادات التي أمر الله تعالى بها، ولا يخفى كثرة من يقع في شيء من صرف هذه العبادات أو شيء منها لغير الله تعالى، وإن إفراد الله تعالى وحده لا شريك له بالعبادة هو الغاية من الخلق، قال تعالى: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ**

وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦].

قال الشيخ السعدي:

"هذه الغاية، التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته، المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه".

إن الله تعالى وحده هو المعبود بحق، وأن ما سواه من المعبودات كلها باطل لا تستحق أي شيء من العبادة.

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } [الحج: ٦٢]، فمن اعتقد غير هذا، أو قال قولاً، أو فعل فعلاً، ينافي هذا المعنى، أو أنكر حق الله تعالى في ألوهيته، أو انتقص شيئا منه، أو صرف شيئا منه لغيره فقد كفر، وارتد عن الإسلام.

يستفاد من القاعدة الأولى

أولًا: أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ كانوا مقرين بتوحيد الربوبية.

ثانيًا: أن شرك الذين قاتلهم رسول الله ﷺ أهون من شرك أهل زماننا، لأنهم لم يشركوا في الربوبية، وأما أهل زماننا فقد أشركوا مَن يعتقدون ولايته في الربوبية فقد اعتقدوا فيهم التصرف، والرزق، والنفع، والضر، ويخافون ممن يعتقدون ولايته أكثر من خوفهم من الله تعالى.

ثالثًا: أن من أقسام التوحيد: توحيد الربوبية.

رابعًا: أن توحيد الربوبية لا يدخل الشخص الإسلام.

خامسًا: أن الذين حاربهم رسول الله ﷺ وقعوا في الشرك أو الكفر في توحيد الألوهية.

سادسًا: أن الإقرار بتوحيد الربوبية وحده لا يعصم دم صاحبه ولا ماله.

سابعًا: استهلّ المصنف كلامه بالعلم، وفيه إشارة أن العلم بحال الجاهلية يعصم من الوقوع فيما وقعوا فيه من الشرك.

❋ ❋ ❋

القاعدة الثانية

أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلا لِطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ، فَدَلِيلُ الْقُرْبَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]، وَدَلِيلُ الشَّفَاعَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةٌ مَنْفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةٌ مُثْبَتَةٌ:

فَالشَّفَاعَةُ الْمَنْفِيَّةُ: مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللهِ فِيمَا لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلا اللهُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وَالشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللهِ، وَالشَّافِعُ مُكَرَّمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالْمَشْفُوعُ لَهُ مَنْ رَضِيَ اللهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الإِذْنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

إن المشركين لم يكونوا يعتقدون فيما يعبدونه: أنه ربُّهم أو أنه خالقهم أو رازقهم أو يحييهم أو يميتهم لكنهم وقعوا في الشرك أو الكفر في توحيد الألوهية، لأنهم لم يكونوا ينكرون ربوبية الله تعالى، بل أقروا بأن الله تعالى هو الرب والخالق والرازق والمحيي والمميت، ولكنهم صرفوا شيئًا من العبادة لغيره تعالى، فجعلهم الله تعالى في عداد الكافرين بإشراكهم غيره في العبادة، وقد تقدّم ذكر طائفة من الآيات التي تدلّ على هذا عند القاعدة الأولى، وإن مشركي زماننا وقعوا في نفس الشرك الذي وقع فيه الأوّلون، فلا تكاد تسأل أحدًا منهم لماذا تطلب من الولي الفلاني من دون الله؟! لقال لك: أنا لا أطلب منه ولكن أتقرب إلى الله بدعائه

وهو واسطة بيني وبين الله، وهذا هو نفس شرك الأولين، قال تعالى: **{وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}** [الزمر: ٣]، وجَهِل هؤلاء المشركون أن هذا هو نفس الجواب وأن الداء هو الداء، ولقال لك أيضا أنا أطلب منه أن يشفع لي عند الله، وجهل هؤلاء المشركون أن الشفاعة التي يرجونها من هذا الولي لا تطلب إلا من الله تعالى وحده لا شريك له، وهي الشفاعة المنفية التي ذكرها المصنف رحمه الله تعالى، وأما الشفاعة المثبتة فلا بد من توفر شرطان فيها:

الأول: أن يأذن الله تعالى للشافع بالشفاعة، والدليل قوله تعالى: **{مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}** [البقرة: من الآية ٢٥٥]، وقوله سبحانه وتعالى: **{وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى}** [النجم: ٢٦]، وقوله سبحانه وتعالى: **{وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى}** [الأنبياء: من الآية ٢٨].

وفي حديث الشفاعة الطويل المتفق عليه من حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ لا يشفع إلا بعد أن يأذن الله تعالى له، ففيه "فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد، وأخر له ساجدا، فيقول: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع...الحديث".

والثاني: أن يكون المشفوع له من أهل التوحيد، والدليل قوله تعالى: **{إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ}** [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: **{مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ }** [غافر: ١٨]، والشرك ظلم عظيم، قال عبد الله بن مسعود:

"لما نزلت هذه الآية: **{الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم}** [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ:

"ليس كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: **{يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم}** [لقمان: ١٣]" متفق عليه.

وقال النبي ﷺ:

"من مات يشرك بالله شيئا دخل النار" متفق عليه من حديث ابن مسعود أيضا.

وقال ﷺ:

"من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة" أخرجه البخاري من حديث معاذ، ومسلم من حديث جابر.

فبمفهوم المخالفة أن من لقي الله بالشرك دخل النار، ومهما بذل العبد من الأعمال من صدقات أو بر أو إحسان إلى الخلق فلا يكون مقبولا عند الله تعالى إلا بالتوحيد، قال تعالى: **{وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}** [الفرقان: ٢٣]، فالشرك الأكبر سببٌ لحبوط جميع الأعمال، قال تعالى: **{لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** [الزمر: ٦٥]، وهذا مطابق لقوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ}** [النساء: من الآية ٤٨]، فإن الإشراك إذا لم يغفر فهو موجب لخلود صاحبه في النار، وهذا يعني أنه لا تشمله الشفاعة.

فالخلاصة أن الشفاعة لها شروط ولها قيود، وليست مطلقة، وإن أهل الجاهلية — الذين حاربهم رسول الله ﷺ – كانوا يصرفون بعض أنواع العبادة لغير الله تعالى معتقدين أن أولئك الأولياء لهم منزلة رفيعة عند الله إلى درجة أنهم يرفعون حاجاتهم إلى الله تعالى، فاللات الذي كان يدعى من دون الله تعالى في الطائف، كان رجلا يلت سويق (٦) الحاج – رواه البخاري (٤٨٥٩) عن ابن عباس – فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه.

---

٦ – يلت سويق: (يلت) يخلطه بالعسل ونحوه (سويق) هو دقيق الحنطة أو الشعير.

فاللات كان رجلا صالحا يصنع الطعام ويقدمه للحجاج، فلما مات عكفوا عنده يطوفون على قبره كما يطوفون على الكعبة ويسألونه قضاء الحاجات، فما فعله أهل الجاهلية مع اللات يفعله مشركو زماننا تماما حذو القذة بالقذة، فإنه إذا مات الرجل الذي يظن فيه الصلاح بنوا على قبره وسألوه قضاء الحاجات وتفريج الكربات، كما كان يطلب مثل ذلك من اللات، ومن العزى ومناة، وقد بيّن الله تعالى بطلان ما كانوا يفعلون، فقال: **{أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى . أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى . إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ}** [النجم: ١٩ - ٢٣]، وكانوا يعلمون أن هؤلاء المدعوين من دون الله لم يخلقوا شيئًا، وأنهم لا يملكون رزقًا ولا حياة ولا موتًا ولا نشورا، وليس لهم من الأمر شيء، ولكن كانوا **{يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ}** [يونس: ١٨]، فأبطل الله تعالى دعواهم تلك بقوله: **{قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}** [يونس: ١٨]، وإن رسول الله ﷺ إنما قاتل على هذا الشرك، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده **{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا}** [الجن: ١٨] ففي هذه الآية الكريمة إبطال عبادة غير الله تعالى، فالدعاء هو العبادة كما في الحديث الصحيح عند أبي داود (١٤٧٩)، وغيره، وفي هذه الآية إبطال الوسائط والشفعاء، وقد عرفتَ أن المشركين كانوا يقولون **{مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}** [الزمر: ٣]، وقال تعالى: **{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ}** [يونس: ١٨]، وأهل زماننا الذين اتّبعوا سَنن من قبلهم يقولون: هؤلاء وسائل نتوسل بهم إلى الله عز وجل، وهذا عين دين الجاهلية، وقد ردّ عليهم الله تعالى في كتابه الكريم: **{لَهُ دَعْوَةُ**

الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ} [الرعد: ١٤]، وقال تعالى: **{أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ}** [الزمر: ٣].

يستفاد من القاعدة الثانية

أولًا: أن المشركين وقعوا في الشرك أو الكفر في توحيد الألوهية.

ثانيًا: أن مشركي زماننا وقعوا في نفس الشرك الذي وقع فيه الأوّلون، واحتجوا على دعاء الصالحين، والتوجه إليهم بالقربات بما احتج به سابقوهم **{مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}** [الزمر: من الآية ٣]، **{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ}** [يونس: ١٨].

ثالثًا: أن المشركين الذين حاربهم رسول الله ﷺ لم يكونوا يعتقدون فيما يعبدونه: أنه ربُّهم أو أنه خالقهم أو رازقهم أو يحييهم أو يميتهم.

رابعًا: أن من صرف شيئًا من العبادة لغير الله تعالى، فهو في عداد الكافرين بإشراكه غيره في العبادة.

خامسًا: أن من أقسام التوحيد: توحيد الألوهية أو توحيد العبادة.

سادسًا: أن الشفاعة لها شروط ولها قيود، وليست مطلقة.

سابعًا: أن الشفاعة منها ما هو ثابت، ومنها ما هو منفي.

ثامنًا: الشفاعة المنفية: هي التي تُطلب من غير الله تعالى فيما لا يَقْدِر عليه إلا اللهُ.

تاسعًا: الشفاعة المثبتة لها شرطان:

الأول: أن يأذن الله تعالى للشافع بالشفاعة.

والثاني: أن يكون المشفوع له من أهل التوحيد.

❋ ❋ ❋

القاعدة الثالثة

أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظَهَرَ عَلَى أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلائِكَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَشْجَارَ وَالأَحْجَارَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، وَدَلِيلُ الْمَلائِكَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا...﴾ الآية [آل عمران: ٨٠]، وَدَلِيلُ الأَنْبِيَاءِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ...﴾ الآية [الإسراء: ٥٧]، وَدَلِيلُ الأَشْجَارِ وَالأَحْجَارِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ [النجم: ٩١، ٢٠]. وَحَدِيثُ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: "خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ، يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيُنَوِّطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالَ

لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ" الحَدِيثَ (٧).

---

٧ - **صحيح** - أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، والشافعي في "السنن المأثورة" (٤٠٠)، وابن أبي شيبة ١٥/ ١٠١، والحميدي (٨٧١)، - ومن طريقه الطبراني ٣/ (٣٢٩٢)، وابن قانع في "معجم الصحابة" ١/ ١٧٢ - وأبو يعلى (١٤٤١)، والمروزي في "السنة" (٣٧)، وابن أبي حاتم في "التفسير" (٨٩٠٦)، واللالكائي في "شرح أصول الاعتقاد" (٢٠٤) و (٢٠٥)، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة" (٢٠٢١)، والبيهقي في "المعرفة" (٣٢٩)، وفي "دلائل النبوة" ٥/ ١٢٥، والواحدي في "الوسيط" ٢/ ٤٠٣-٤٠٤ من طريق سفيان بن عيينة، وأحمد ٥/ ٢١٨، والنسائي في "الكبرى" (١١١٢١)، وعبد الرزاق (٢٠٧٦٣)، وفي "التفسير" (٩٣١)، والمروزي في "السنة" (٣٨)، والطبري في "التفسير" (١٥٠٥٥) و (١٥٠٥٦)، والطبراني ٣/ (٣٢٩٠)، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة" (٢٠٢١)، وابن بطة في "الإبانة الكبرى" (٧١٠) من طريق معمر، وأحمد ٥/ ٢١٨، والبخاري في "التاريخ الكبير" ٤/ ١٦٣- معلقا مختصرا، والمروزي في "السنة" (٤٠)، والطبري في "التفسير" (١٥٠٥٨) من طريق عقيل بن خالد، وأحمد ٥/ ٢١٨، والمروزي في "السنة" (٣٩)، والطبراني ٣/ (٣٢٩١)، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة" (٢٠٢١) من طريق مالك بن أنس، والطيالسي (١٤٤٣)، وابن أبي عاصم في "السنة" (٧٦)، والطبراني ٣/ (٣٢٩٤)، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة" (٢٠٢١) من طريق إبراهيم بن سعد، وابن حبان (٦٧٠٢) من طريق يونس بن يزيد، والطبري في "التفسير" (١٥٠٥٧)، والطبراني ٣/ (٣٢٩٣)، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة" (٢٠٢١)، والبيهقي في "دلائل النبوة" ٥/ ١٢٤ من طريق محمد بن إسحاق، سبعتهم عن ابن شهاب، عن سنان بن أبي سنان الدؤلي ثم الجندعي، عن أبي واقد الليثي، قال: =

= "خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، فمررنا بسدرة، فقلت: يا نبي الله، اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة، ويعكفون حولها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: **{اجعل لنا إلها كما لهم آلهة}** [الأعراف: ١٣٨] إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم".

وقال الترمذي:

"حديث حسن صحيح".

وجاء في مطبوع "سنن الترمذي"، و"مسند أبي يعلى"، و"معجم الصحابة" لابن قانع: أن خروجهم كان إلى خيبر، وهو خطأ، صوابه: (حنين)، وجاء في نسخة الترمذي التي اعتمدها العلّامة أبو العلا المباركفوري في شرحه ٦/ ٣٣٩: (حنين)، وصححه بشار عواد معروف في تحقيقه لسنن الترمذي ٤/ ٥٠.

وجاء من حديث عمرو بن عوف المزني:

أخرجه ابن أبي حاتم في "التفسير" (٨٩١٠)، والطبراني ١٧/ (٢٧) من طريق كثير بن عبد الله المزني، عن أبيه، عن جده بنحوه.

وكثير بن عبد الله المزني: واه.

وجاء من حديث ابن عباس:

أخرجه الأزرقي في "أخبار مكة" ١/ ١٢٩-١٣٠ من طريق الواقدي (وهو عنده في "المغازي" ٣/ ٨٩١) قال: أخبرني ابن أبي حبيبة، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس بنحوه.

والواقدي: متروك.

وابن أبي حبيبة: ضعيف. =

قال الله تعالى: **{وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}** [الروم: ٣١ . ٣٢]، فبيّن سبحانه تعالى أن هؤلاء المشركين فرّقوا دينهم منهم من يعبد الأوثان والأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين ومنهم يهود ومنهم نصارى، فكل فرقة من فرق الشرك تألفت وتعصبت على ما معها من الباطل ومنابذة غيره ومحاربته.

وكان الناس قبل الإسلام متفرقين في عباداتهم، لكل قبيلة إله خاص بتلك القبيلة، وكذلك القرى والمدن لكل قرية ومدينة آلهتها الخاصة بها، فإذا تحالفت القبائل أو القرى أو المدن تحالفت آلهتها معها!!

وأما إذا تحاربت هذه القبائل أو القرى أو المدن، فيكون لهذه الحرب أثر كبير في مستقبل الآلهة وفي عددها، فينصرف المغلوبون عن آلهتهم إلى عبادة آلهة أخرى، لأنها أصبحت ضعيفة لا قدرة لها على الدفاع عن عبدتها، وقد يتأثر الغالبون بعبادة المغلوبين الذين خضعوا لهم، فيضيفون آلهة المغلوبين إلى آلهتهم، فيزيد بذلك عدد الآلهة، وقال شاعرهم:

وسار بنا يغوث إلى مراد ... فناجزناهم قبل الصباح

ولسادات القبائل والأمراء والملوك أثر كبير في ظهور الشرك، فإنه كان بإمكانهم إقرار مستقبل الآلهة بإضافة آلهة جديدة على الآلهة القديمة!!

= وداود بن الحصين عن عكرمة: منكر.

وقد تعدّدت عبادات الجاهلية الشركية، فمنهم من كان يعبد الكواكب، ومنهم من يعبد الجن والملائكة، ومنهم من يعبد الأصنام والأحجار والأشجار، ومنهم يعبد عيسى عليه السلام، ومنهم يعبد عزيرا، ولم تكن الأصنام إلا رموزا لبعض الصالحين كما تقدّم أن اللات كان رجلا صالحا يصنع الطعام للحجاج، فلم تكن هذه الحجارة تُعبد في بداية الأمر ولكن كانوا صوروها أو نحتوها لتكون صورة أو رموزًا تذكرهم بعبادة الله، فلما مضى عهد طويل عليها، نسي الناس أصلها، ولم يعرفوا أمرها، فاتخذوها أصنامًا وصرفوا لها أنواعا من العبادات، قال الطبري في "التفسير" ٢٣/ ٦٣٩:

"يقول تعالى ذكره مخبرا عن إخبار نوح، عن قومه: **{وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا}** كان هؤلاء نفرا من بني آدم فيما ذكر عن آلهة القوم التي كانوا يعبدونها، وكان من خبرهم فيما بلغنا ما حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا مهران، عن سفيان، عن موسى، عن محمد بن قيس (ويعوق ونسرا) قال: كانوا قوما صالحين من بنى آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا، وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر فعبدوهم".

وقد كان العرب حنفاء يعبدون الله وحده، قال النبي ﷺ: "إن أول من سيب السوائب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر و إني رأيته يجر أمعاءه في النار" أخرجه أحمد ١/ ٤٤٦.

يقول شيخ الإسلام في "الرد على المنطقيين" (ص ٤٥٥):

"كانت العرب قبل أن يبتدع عمرو بن لحي الشرك وعبادة الأوثان: حنفاء يعبدون الله وحده ويعظمون إبراهيم وإسماعيل، ولم يكن لهم كتاب يقرؤونه ويتبعون شريعته، وكان موسى قد بعث إلى بني إسرائيل بشريعة التوراة وحج البيت العتيق ولم يبعث إلى العرب لا عدنان ولد إسماعيل ولا قحطان".

وقد أنشد أحد الجراهمة:

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهة ... شتى بمكة حول البيت أنصابا

وكان للبيت رب واحد أبدًا ... فقد جعلت له في الناس أربابا

لتعرفن بأن الله في مهلٍ ... سيصطفي دونكم للبيت حجابا

نعم هكذا كانت المعبودات كثيرة، والناس متفرقون في عباداتهم، فلما بُعث النبي ﷺ دعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده، فشقّ ذلك على المشركين، قال الله تعالى حاكيًا حالهم: **{وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ}** [ص: ٤ – ٧].

وقد ضرب الله تعالى للتوحيد والشرك مثلا في كتابه الكريم، فقال سبحانه وتعالى عن الشركاء: **{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ**

هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: ٢٩]، قال العلّامة السعدي رحمه الله تعالى في "التفسير" (ص ٧٢٤):

"**{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلا}** أي: عبدا **{فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ}** فهم كثيرون، وليسوا متفقين على أمر من الأمور وحالة من الحالات حتى تمكن راحته، بل هم متشاكسون متنازعون فيه، كل له مطلب يريد تنفيذه ويريد الآخر غيره، فما تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟ **{وَرَجُلا سَلَمًا لِرَجُلٍ}** أي: خالصا له، قد عرف مقصود سيده، وحصلت له الراحة التامة {هَلْ يَسْتَوِيَانِ} أي: هذان الرجلان {مَثَلا}؟ لا يستويان.

كذلك المشرك، فيه شركاء متشاكسون، يدعو هذا، ثم يدعو هذا، فتراه لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع، والموحد مخلص لربه، قد خلصه الله من الشركة لغيره، فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة، فـ **{هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا الْحَمْدُ لِلَّهِ}** على تبيين الحق من الباطل، وإرشاد الجهال **{بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ}**".

وقال تعالى حاكيا عن يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: **{ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}** [يوسف: ٣٩، ٤٠].

قال السعدي في "التفسير" (ص ٣٩٨):

"**{يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}** أي: أرباب عاجزة ضعيفة لا تنفع ولا تضر، ولا تعطي ولا تمنع، وهي متفرقة ما بين أشجار

وأحجار وملائكة وأموات، وغير ذلك من أنواع المعبودات التي يتخذها المشركون، أتلك **{خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ}** الذي له صفات الكمال، **{الْوَاحِدُ}** في ذاته وصفاته وأفعاله فلا شريك له في شيء من ذلك.

{الْقَهَّارُ} الذي انقادت الأشياء لقهره وسلطانه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن **{ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها}** ومن المعلوم أن من هذا شأنه ووصفه خير من الآلهة المتفرقة التي هي مجرد أسماء، لا كمال لها ولا أفعال لديها .

ولهذا قال: **{مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ}** أي: كسوتموها أسماء، سميتموها آلهة، وهي لا شيء، ولا فيها من صفات الألوهية شيء، **{مَا أَنزلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ}** بل أنزل الله السلطان بالنهي عن عبادتها وبيان بطلانها، وإذا لم ينزل الله بها سلطانا، لم يكن طريق ولا وسيلة ولا دليل لها، لأن الحكم لله وحده، فهو الذي يأمر وينهى، ويشرع الشرائع، ويسن الأحكام، وهو الذي أمركم **{أن لا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}** أي: المستقيم الموصل إلى كل خير، وما سواه من الأديان، فإنها غير مستقيمة، بل معوجة توصل إلى كل شر. **{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}** حقائق الأشياء، وإلا فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له، وبين الشرك به، أظهر الأشياء وأبينها، ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك، حصل منهم ما حصل من الشرك".

وإن الله تعالى أمر المؤمنين بقتال هؤلاء المشركين الذين اتخذوا آلاهات متعددة مع الإله الحق فقال سبحانه: **{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه}**

[الأنفال: ٣٩]، فلم يفرّق النبي ﷺ بين من يعبد حجرًا أو وليًا أو صالحًا أو نبيًا أو مَلَكًا أو شمسًا أو قمرًا بل قاتلهم جميعًا وحكم عليهم بأنهم مشركون كافرون بعبادة الله الواحد القهار، وقاتلهم بعد أن أقام عليهم الحجة بهذه الآيات البينات **{وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ}** [فصلت:٣٧]، **{وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا}** [آل عمران:٨٠]، **{وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}** [المائدة:١١٦]، **{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ}** [الإسراء:٥٧]، **{أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى . أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى. تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى . إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى}** [النجم: ١٩ – ٢٣].

وذكر الإمام المجدد حديث أبي واقدٍ الليثي ليبيّن أنه كان من الجاهلية من يعبد الأشجار، قال شيخ الإسلام في "الاقتضاء" ٢/ ١٥٧:

"ولما كان للمشركين شجرة يعلقون عليها أسلحتهم ويسمونها ذات أنواط فقال بعض الناس: (يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال: الله أكبر قلتم كما قال قوم موسى لموسى: **{اجعل لنا إلها كما لهم آلهة}** (إنها السنن

لتركبن سنن من كان قبلكم)، فأنكر النبي ﷺ مجرد مشابهتهم للكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها معلقين عليها سلاحهم، فكيف بما هو أعظم من ذلك من مشابهتهم المشركين أو هو الشرك بعينه؟".

لقد أنكر النبي ﷺ على الصحابة رضي الله تعالى عنهم طلبهم الذي طلبوه وشبّهه بطلب قوم موسى (اجعل لنا إلهًا)، أي: أنهم شابهوهم في المقولة في طلبهم أن يجعل لهم ذات أنواط: و"ذات أنواط": هو اسم شجرة بعينها كانت للمشركين، وسميت بذلك لأنهم كانوا ينوطون بها سلاحهم، أي: يعلقونه بها، وأنواط: جمع نوط، وهو مصدر سمي به المنوط. انظر "النهاية" ٥/ ١٢٨.

ومن فوائد هذا الحديث التحذير من الشرك، وأن الإنسان قد يستحسن شيئا يظن أنه يقربه إلى الله، وهو أبعد ما يبعده من رحمة ربه، ويقربه من سخطه، وإن النبي ﷺ شبّه قولهم بقول بني إسرائيل، مع أنهم لم يطلبوا إلها من دون الله صراحة ولكن من خشية النبي على الأمة وحرصه على الابتعاد عن هذه المواطن التي تُفضي إلى الشرك يستخدم هذه الألفاظ يحذّر ما صنع المشركون.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله في "تيسير العزيز الحميد" (ص ١٤٧):

"فإذا كان اتخاذ شجرة لتعليق الأسلحة، والعكوف عندها، اتخاذ إله مع الله مع أنهم لا يعبدونها، ولا يسألونها، فما الظن بما حدث من عباد القبور من دعاء الأموات، والاستغاثة بهم، والذبح، والنذر لهم، والطواف بقبورهم، وتقبيلها، وتقبيل أعتابها وجدرانها، والتمسح بها، والعكوف عندها، وجعل السدنة والحجاب لها؟! وأي نسبة بين هذا، وبين تعليق الأسلحة على شجرة تبركًا؟!".

يستفاد من القاعدة الثالثة

أولًا: أن المشركين متفرقون في عباداتهم، فمنهم من يعبد الأوثان والأصنام والأشجار، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين، ومنهم يعبد عيسى عليه السلام، ومنهم يعبد عزيرا، فكل فرقة من فرق الشرك تألفت وتعصبت على ما معها من الباطل ومنابذة غيره ومحاربته.

ثانيًا: أن الفرقة لا تكون إلا بعد الاجتماع، وكان العرب حنفاء يعبدون الله وحده ثم ابتدع فيهم عمرو بن لحي الشرك وعبادة الأوثان.

ثالثًا: أن المشركين الذين حاربهم رسول الله ﷺ كانوا على علم بمعنى (لا إله إلا الله)، فإنه لما بُعث النبي ﷺ دعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده، فشقّ ذلك عليهم، كيف يكون المعبود واحدا؟!، قال الله تعالى حاكيًا حالهم: **{وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}**، وأما مشركو زماننا فيفسّرون (لا إله إلا الله) بأنه لا رب إلا الله، فكان المشركون الذين حاربهم رسول الله ﷺ أعلم بمعناها، ولازم تفسيرهم هذا أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ كانوا موحدين، لأنهم يقولون: لا رب إلا الله، قال الله تعالى: **{قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ**

لِلَّهِ} [المؤمنون: ٨٦، ٨٧]، وفي قراءة **{سَيَقُولُونَ اللَّهُ}** على أنه مبتدأ، والخبر محذوف تقديره: الله ربها، وعلى القراءة الأولى **{سيقولون لله}** على أنّه جارّ ومجرور، خبر لمبتدأ محذوف، والجواب على هذا مطابق للسؤال بحسب المعنى، فالعرب تجيز نحو قولك: من ربّ هذه الدار؟ فيقال: هي لزيد، لأن اللام تفيد الملك، فمعنى: **{من رب السماوات والأرض}**: لمن السماوات والأرض؟ والجواب: سيقولون هي لله، وقد تقدّمت الأدلة على هذا عند القاعدة الأولى.

رابعًا: أن الأصنام لم تكن إلا رموزا لبعض الصالحين فإن اللات كان رجلا يلت سويق الحاج - كما رواه البخاري (٤٨٥٩) عن ابن عباس - فالات رجل صالح يصنع الطعام للحجاج، فلم تكن هذه الحجارة تُعبد في بداية الأمر ولكن كانوا صوروها أو نحتوها لتكون صورًا أو رموزًا لبعض الصالحين يتذكرون بهم عبادة الله.

خامسًا: أن النبي ﷺ لم يفرّق بين من يعبد حجرًا أو وليًا أو صالحًا أو نبيًا أو مَلَكًا أو شمسًا أو قمرًا بل قاتلهم جميعًا وحكم عليهم بأنهم مشركون كافرون بعبادة الله الواحد القهار.

* * *

القاعدة الرابعة

أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانِنا أَغْلَظُ شِرْكًا مِنَ الأَوَّلِينَ، لأَنَّ الأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ، وَيُخْلِصُونَ فِي الشِّدَّةِ، وَمُشْرِكُو زَمَانِنا شِرْكُهُمْ دَائِمٌ فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَّة؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وَاللهُ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلى آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

إن مشركي زماننا أغلظ شركًا ممن حاربهم رسول الله ﷺ، وهو كما قال المصنف الإمام رحمه الله تعالى فإنهم يشركون في الرخاء والشدة بل إنهم أشركوا مَن يعتقدون ولايتهم في الربوبية فقد اعتقدوا فيهم التصرف، والرزق، وجلب النفع، ودفع الضر، ويخافون ممن يعتقدون ولايته أكثر من خوفهم من الله تعالى، فإن بعضهم إذا طُلب منه القَسَم بالله على حق عليه قد جَحَده، فإنه يقسم ولا يتردد، لكن إذا طُلب منه الحلف بالحسين أو بغيره من الصالحين فإنه يخاف، ويتلعثم ويتلمّظ ويتلفّت يمينا وشمالا ويصفر وجهه ثم يقول: لا، لن أحلف بالولي الفلاني، ويعترف بالحق الذي عليه!!

هذا رأيته بعيني وسمعته بأذني، هكذا بلغ الشرك بهؤلاء، وقد حكى الله تعالى حال المشركين الذين بُعث فيهم رسولُ الله ﷺ، وأنهم يشركون في الرخاء فقط لكنهم في الشدة يضطرون إلى الله وحده، قال الله تعالى: **{فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ}** [العنكبوت: ٦٥]،

وقال تعالى: **{وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا }** [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: **{هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}** [يونس: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: **{وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}** [لقمان: من الآية ٣٢].

قال السعدي:

"ومن رحمته الدالة على أنه وحده المعبود دون ما سواه أنهم إذا مسهم الضر في البحر فخافوا من الهلاك لتراكم الأمواج ضل عنهم ما كانوا يدعون من دون الله في حال الرخاء من الأحياء والأموات، فكأنهم لم يكونوا يدعونهم في وقت من الأوقات لعلمهم أنهم ضعفاء عاجزون عن كشف الضر وصرخوا بدعوة فاطر الأرض والسماوات الذي تستغيث به في شدائدها جميع المخلوقات وأخلصوا له الدعاء والتضرع في هذه الحال، فلما كشف الله عنهم الضر ونجاهم إلى البر ونسوا ما كانوا يدعون إليه من قبل وأشركوا به من لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع وأعرضوا عن الإخلاص لربهم ومليكهم، وهذا من جهل الإنسان وكفره فإن الإنسان كفور للنعم

إلا من هدى الله فمنّ عليه بالعقل السليم واهتدى إلى الصراط المستقيم، فإنه يعلم أن الذي يكشف الشدائد وينجي من الأهوال هو الذي يستحق أن يفرد وتخلص له سائر الأعمال في الشدة والرخاء واليسر والعسر".

يستفاد من القاعدة الرابعة

أولًا: أن مشركي زماننا أغلظ شركًا ممن حاربهم رسول الله ﷺ لأن شركهم في الرخاء، وأما مشركو زماننا فشركهم دائم في الرخاء والشِدة.

ثانيًا: أن المشركين الذين حاربهم رسول الله ﷺ كانوا يخلصون الدعاء في الشدائد.

ثالثًا: أن مشركي زماننا شركهم دائم في الرخاء والشدة، بل إنهم أشركوا مَن يعتقدون ولايتهم في الربوبية فقد اعتقدوا فيهم التصرف، والرزق، وجلب النفع، ودفع الضر، ويخافون ممن يعتقدون ولايته أكثر من خوفهم من الله تعالى.

رابعًا: أن الشرك بعضه أغلظ من بعض وإن كانوا في الحكم سواء.

❋ ❋ ❋

المحتويات

المقدمة.. ٤
القاعدة الأولى ٧
يستفاد من القاعدة الأولى.................................. ١٠
القاعدة الثانية.. ١٢
يستفاد من القاعدة الثانية.................................. ١٦
القاعدة الثالثة.. ١٨
يستفاد من القاعدة الثالثة.................................. ٢٨
القاعدة الرابعة ٣٠
يستفاد من القاعدة الرابعة.................................. ٣٢